مُناقشات

تحية طيبة وبعد ،

طالعتنا مجلة الآداب في عددها الثاني اول فبراير ١٩٦٣ بكلمة قيمة عن جمهوريتنا ـ السودان ـ ركز الكاتب فيها حول قضية الادب في السودان نلخصها في الآتي :

« الجرائد في السودان تعد على اصابع اليد تضحي بعضها لا كلها في خلال الاسبوع بصفحة واحدة تمنحها للخواطر الادبية التي تتلقاها من شهداء الكلمات (السجينة) .

محررو الصحف ليسوا من أهل الادب ولذلك لا يهتمون بقضية الادب.

الانتاج الادبي ضحل .. والحياة الادبية مؤلمة تحتاج الى جهود جبارة ..

عدم وجود مجلة أدبية في السودان له أثر كبير في ركود الحياة الادبية .. ولهذا لا بد من قيام مجلة ادبية وهي بداية فقط » .

ولي تعليق موجز حول هذه النقاط الهامة التي اثارها الكاتب ... فقلة الجرائد في السودان ترجع اولا واخيرا الى الوضع السياسي القائم في هذه الجمهورية الترامية الاطراف . فقد كانت هنالك عدة صحف تخصص صفحات اسبوعية للنتاج الادبي ، ومناقشة قضايا الادب المختلفة .. نذكر منها على سبيل المثال : جريدة الايام .. الصحافة .. الصراحة .. وجرائد الاحزاب الوطني الاتحادي .. الشعب الديمقراطي .. والاخوان .. والجبهة .. وحزب الامة وله صحيفتان جريدة النيل والامة وقد كانت جريدة النيل من انشط الصحف السودانية في دفع الحركة الادبية ..

وكل هذه الصحف كانت تصدر يوميا . ولكل صحيفة صفحتها الادبية الاسبوعية ... ومن المجلات مجلة المنار .. وصوت المرأة .. والصباح الجديد .. وهنا ام درمان .. ومجلة القصة ... وقد اختفت جميع الصحف اليومية والمجلات بعد حركة انقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ . وبقيت ثلاث صحف يومية هي الرأي العام .. والسودان الجديد .. والثورة ، وهي جريدة حكومية تصدرها وزارة الاستعلامات والعمل .. وهناك بعض صحف اسبوعية مثل جريدة الاخبار ومجلة واحدة هي مجلة الاذاعة السودانية وهي مجلة حكومية تصدرها وزارة الاستعلامات ..

وقد اسهم الادباء السودانيون بالكثير في تحرير هذه الصحف بنشر نتاجهم في مجالات الادب المختلفة ، وباشرافهم المباشر في تحرير الصفحات الادبية في الجرائد اليومية والاسبوعية .. اما اليوم فقد تغير الوضع في البلاد وقلت الصحف بعدما كانت تقارب العشرين من مجلة وجريدة يومية واسبوعية فاصبح بذلك مجال الصحف الموجودة حاليا لا يسع كل ما يقدمه الادباء والامل معقود الان في اتحاد الهيئات الادبية الوليدة .. فلعله يقدم على اصدار مجلة ادبية تعكس نشاط الادباء ولتكن هذه المجلة (بداية فقط) .

اما عن محرري الصحف فليس صحيحا انهم ليسوا من اهل الادب. كما ذكر الكاتب . فكل الصحف السودانية منذ قيامها كانت اهدافها الى جانب العمل السياسي ـ الذي تفرضه تلك الفترة الحرجة فترة الحكم الاستعماري ـ العناية بالنهضة الادبية والاخذ بيد ناشئة الادب والفكر في السودان .. وقد ظهرت على صفحاتها مناقشات ادبية في مستوى رفيع لا يقل عن مستوى ادباء القاهرة الذين كانوا على صلة دائمة بالادباء السودانيين . وقد تأثر الادباء السودانيون بالادب المصري في فترة طويلة من تاريخ السودان فالمناقشات التي تدور في القاهرة تعكسها الصحف السودانية في الخرطوم .. وجميع محرري الصحف كانوا الرواد الاوائل للنهضة الادبية والفكرية .. ولا نود ان نذكر تاريخ الصحافة والادب منذ عهد عرفات محمد عبدالله .. ومحمد عزيز الصديق واخيه عبدالله ومعاوية نور وغيرهم فالمجال لا يسع .. وموعدنا في فرصة اخرى ـ ويكفينا ان نقول ان محرري الصحف الثلاث التي تصدر حاليا كانوا من ابكار الخريجين الذين اسهموا بنصيب وافر في تحرير البلاد من قبضة المستعمرين وارساء قواعد الحكم الديمقراطي . الى جانب اعمالهم الادبية الممتازة . فمثلا اسماعيل العتباني كان احد اعضاء (مؤتمر الخريجين) واحد اعضاء (الجمعية الادبية) بمدني .. وهو الان رئيس تحرير جريدة الرأي العام يساعده كبار الادباء امثال حسن نجيله الاديب والمؤرخ الذي اضاف للمكتبة العربية كتاب (ملامح من المجتمع السوداني) وهو كتاب قيم جمع بين الحقائق التاريخية والانشاء الادبي الرفيع ـ .. وما يقال عن رئيس تحرير الرأي العام يقال عن رئيس تحرير السودان الجديد .. والثورة .. والاخبار ومجلة الاذاعة السودانية السيد محمد مفتاح الفيتوري صاحب ديوان (اغاني افريقيا) . فتاريخ الصحافة في بلادنا تاريخ حافل .. ومحررو الصحف ادباء مجيدون اشتغلوا بالادب قبل الصحافة وانشأوا الجمعيات الادبية وراسلوا الادباء خارج الحدود وناقشوهم وناظروهم في شتى الموضوعات الادبية . ودفعوا الثمن غاليا في سبيل الادب والفكر والحرية ...

ونحن مع ايماننا بهذه الحقائق لا ننكر موقف الصحف في هذا العهد . فقد اصبحت تجارية تعنى بالاعلان اكثر من المواد الادبية وذلك لضيق صفحاتها .. وهذا ما ادى الى ركود الحياة الادبية .. وما ينشر في الصحف اليوم ـ على قلته ـ من ادب هو ادب فاتر لا يعبر عن الحياة بقدر ما يسير في موكب النفاق والتملق. وهنا محنة الادب في السودان.

وفي حديثنا عن دور الصحف لا ننسى دور الجمعيات الادبية مثل جماعة الادب السوداني .. والندوة الادبية .. والجمعيات الادبية في جامعة الخرطوم . وجامعة القاهرة فرع الخرطوم .. وجماعة الادب المتجدد .. ونادي القصة .. فهذه الجمعيات تعمل جاهدة في دفع الحركة الادبية .. فقد قامت جماعة الادب السوداني بالاحتفال بذكرى شاعر الروح والوجدان التجاني يوسف بشير واخرجت كتابا يحتوي على دراسات قيمة عن هذا الشاعر العظيم .. وما زالت تحضر لمهرجانات ادبية كبرى ودراسات حول الادب الشعبي السوداني .. كما قامت بالدعوة الى اتحاد يجمع الهيئات الادبية المختلفة في صف واحد.. فقد تكون هذا الاتحاد واحتفل قبل ايام بذكرى الشاعر السوداني الكبير محمد سعيد العباسي ..

وعلى كل حال فقد بدأت بوادر نهضة ادبية حديثة تظهر في أفق الحياة الادبية في السودان بالرغم من المضايقات التي يجدها الكتاب والادباء وهم يعانون آلام الكلمة ويتعذبون في سبيلها ..

وختاما ارجو ان اكون قد وضعت النقط فوق الحروف ... مع تحياتي وتقديري للاداب والى اللقاء في فرصة سانحة وشكرا .

الوضع الادبي في السودان

بقلم عمر ابراهيم

فؤاد الاطرش يروي

قصة

اسمهان

بقلم : قوميل لبيب

تباع في عموم المكتبات — الثمن ٥٠٠ ق.ل.

ردان

بقلم حسين علي صعب

من التعسف أن نطلق احكامنا جزافا ، وفق ما تقتضيه اهواؤنا، على الاعمال الادبية وخاصة الشعرية ، فنعمل على تهشيمها ان لم ترض ذوقنا ، وعلى الافاضة بالمديح ان هي تعرت لنا ، كاشفة عن ذاتها للمرة الاولى من قراءتها ، دون مشقة وجهد ، ونكتفي حينئذ بتوجيه النصح والارشاد ، من عل ، الى الذين لسوء حظهم ، ساقتهم الاقدار لنحكم على نتاجهم الفني بالتعثر من غير ان نحس بحرارة الجهد الذي بذلوه حتى اخرجوا تجاربهم من حالة المعاناة الغائمة الى واقع التجسيد الواضح.

لعل ما ذكرت سمة واضحة من سمات نقدنا الحديث . فالناقد، عندما يتصدى لعمل فني ، يبدي رأيه فيه ، ينظر اليه من زاويته الخاصة لذلك يجيء تقييمه له ناقصا وجزئيا .. منحصرا في جانب واحد من جوانبه المتعددة التي تشكله .

وانا لا انكر ان مطلق قصيدة ، كعمل ادبي يراد نقده ، خالية من العيوب . ولكن الذي ارفضه بشدة هو ان يقف الناقد عند هذا العيب، ويعمى عن اكتشاف الطبقات الفنية الاخرى الموجودة في تلك القصيدة.

ويصبح الرفض حادا ، والمشكلة اكثر تعقيدا وانحرافا ، اذا لم يكلف الناقد نفسه ، او كلفها وعجز ، عناء البحث عن العيب والتأكد منه ، قبل التشبث به، واخذه معولا لتهديم بنيان القصيدة وبعثرة اجزائها لتظهر وكأنها شلو خمدت فيه نار الحياة .

دفعني الى هذا القول ما كتبه السيد جميل حسن حول قصيدتي (الى عام ١٩٦٣) المنشورة في عدد شباط من مجلة الاداب الغراء.

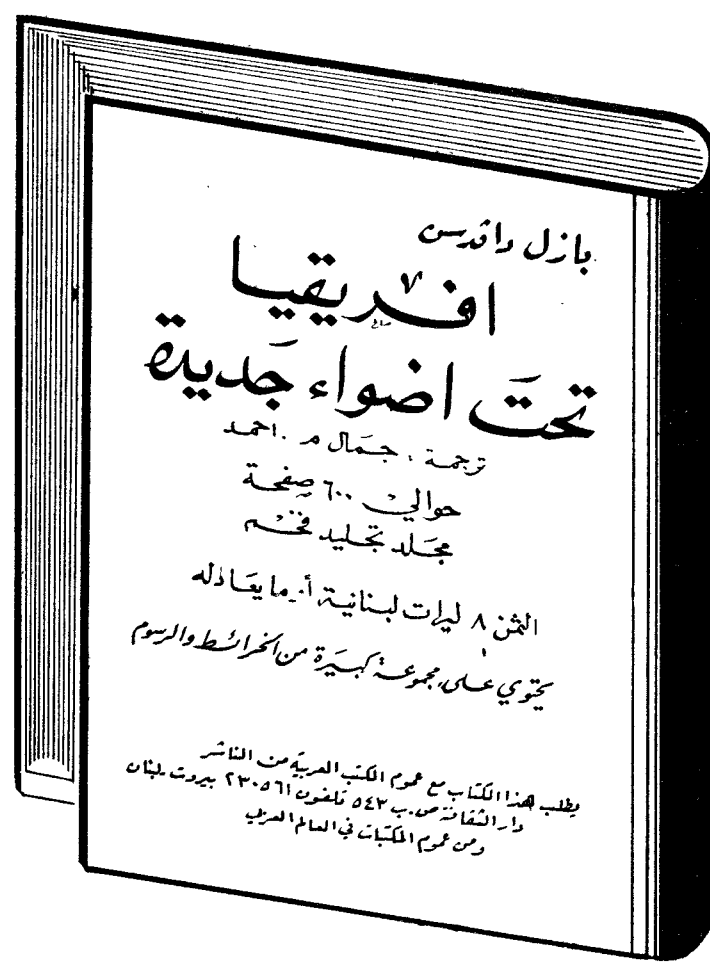

فقد قال : « واما القصيدة الرابعة (الى عام ١٩٦٣) لحسين صعب، فاني اعتذر للشاعر عن انني لم استطع ان اتبين لها صورة كافية، وانني لافيت صعوبة بالغة في قراءتها بسبب اضطراب وزنها هذ الاضطراب الكبير . ولعل الاضطراب حاصل من الغلط في توزيع التفعيلات على الابيات ، فالشاعر يرص تفعيلة البحر الكامل « متفاعلن » وراء بعضها دون توقف ويقسمها بين اخر البيت السابق واول البيت اللاحق على التوالي ... »

يستشف من ادعاء الناقد في حكمه على قصيدتي انه لم يفهم مضمونها ورموزها .. وتزول الدهشة اذا علمنا انه لم يحسن قراءتها.. لم يعرف اين يبتدىء البيت واين ينتهي ، لذلك زعم بانها مضطربة الوزن . وانا اتحداه ان يستشهد ببيت واحد خارج عى اوزان الشعر العربية ، ما عدا بيتين، المطبعة سبب الخطأ فيهما ، هما :

١ ـ السور حطم والشمس رأيتها ،
تنساب انهارا ،
وليل الموت أقمارا
على وجه التلال .

٢ ـ عادت الي عزيمتي ،
اعضائي ...؟
نهضت كمارد قد نام أعواما طوال

والصواب :

١ ـ السور حطم والشموس رأيتها ،
تنساب انهارا ،
وليل الموت اقمارا ،
على وجه التلال .

٢ ـ عادت الي عزيمتي ،
اعضائي ألتمت ،
نهضت كمارد قد نام أعواما طوال .

فهو يظن ، ولست اعلم السبب بالضبط ، ربما لانه ليس من انصار الشعر الحر، وبالتالي ليس من الذين يهتمون بقضاياه ، وبالتطورات التي لحقته ، أن البيت الواحد ينتهي عند الفاصله . وهذا ظن غريب لان الناقد لو قدر له ان يقرأ البيت مرات متتابعة لوجد انه ينتهي عند النقطة ويظل معناه مرتبطا بالبيت الذي يليه . واعتقد انه قرأه على الشكل الاتي :

أقبل عواصف تهدم الجدران عن وجهي ، بيت
تعري جبهتي للشمس ، بيت
يلثم نورها شم الجبال . بيت

والحقيقة ان قارئا واعيا يدرك ان هذه الاجزاء الاخذة برقاب بعضها، ليست سوى بيت واحد متموج النغم ، ينتهي معناه عند لفظة (الجبال) الساكنة الاخر .

وللايضاح يجب ان يقرأ هكذا :

أقبل عواصف تهدم الجدران عن وجهي، تعري جبهتي للشمس، يلثم نورها شم الجبال .

مستفعلن ـ متفاعلن ـ مستفعلن ـ مستفعلن ـ مستفعلن ـ مستفعلن ـ متفاعلن ـ مستفعلاتن .

ولنفترض ان قصيدتي قطعة نثرية ، أفليس من واجب الناقد الكريم أن يشير ولو بكلمة الى موضوعها ، ولكنها طريقته في النقد ، بل مسربه الذي لا يفضي به الا الى دراسة العروض ، وكأن القصيدة ليست شيئا اخر سواه .

اما النظرة الثاقبة الشاملة الى القصيدة ، لتحيط بها من جميع نواحيها وابعادها ، كاشفة عن مواطن الجمال ومواضع الاسفاف والقبح فيها ، فلم نلمح لها اثرا يذكر في المقال كله غير لمحات ضئيلة من اشارات عابرة ، تتصف بالتعميم . أي اننا نستطيع ان نشير بها الى اية قصيدة كانت كقوله عن قصيدة فاروقشوشة « هذه القصيدة اللطيفة العذبة الغنية بالعاطفة والرومانتيك الملحن .. » أو قوله عن قصيدة حسن فتح

الباب « لؤلؤة عذراء » « لقد اراد الشاعر ان يستعمل الرمز فيها ، الا انه لم يكن بارعا في اخفاء الصنعة واكساب الرمز صفــة الايحاء التي يتمناها .. » أما أين هو الرمز ، وما هي دلالته ، وكيف أخفق الشاعـر عندما أراد ان يجعله موحيا فلم يتعرض الناقد لهذا كله بل اكتفى بـذكر الاخطاء العروضية . وكفى الله المؤمنين القتال .

ـ الرد الثاني ـ

لا أحاول في ردي هذا على كلمة السيد صبحي شحروري المنشورة في مجلة « الاداب » العدد الثاني ١٩٦٣ ان ابين الاخطاء الفادحة التـي تصم الشعر الحديث ، والتي وجدها المناهضون لحركته ، ثغرات يوجهون من خلالها الطعنات اليه ، وانما ان اعترف اننا ، في مجالاتنا المختلفـة، الاجتماعية والسياسية والفنية ما نزال نسير مدفوعين بالعاطفة لا نترك لعقولنا مجالا تتجلى فيه فعاليتها بحيث نشعر الاخرين بان ما نمـدحه او نذمه ، هو ، في جوهره ، مستقل عن ذواتنا حري به ان يحترم او يزدرى . فالسيد شحروري، بدافع الصداقة ، والرابطة الادبية، يقـرر في دفاعه عن امين شنار انني استعملت ، من غير ان اشعر ، اسـلوب الاستاذ جوزيف نجيم في كلمتي « حول الشعر الحديث » اي انني هاجمت الشعر الحديث بينما قصدت أن ادافع عنه. تأويل عجيب، قادته اليـه عاطفته ، لما ذكرت في كلمتي التي ليس فيها سطر واحد يحمل غير معناه الخارجي. قلت : (واذا كانت هناك نماذج رديئـة مثل ـ الوحـش والمئذنة ـ على طيبة نيات أصحابها تفاجئنا في المجلات والصحف فلا بد من الاعتراف بان العجز واقع في الشعراء انفسهم لا في الشعر ، وبـان اتخاذ وسيلة منها لمحاربة الشعر الحديث عمل بعيـد كل البـعد عـن الموضوعية والمنطقية) . واعود فأقول بارادة ووعي ، لا دون ان اشعـر كما يدعي ، ان ـ الوحش والمئذنه ـ تمثل نموذجا رديئا ولا احاول دعم حكمي هذا بتحليل مقتضب لها ، لا اعتقادي انها هي ذاتهـا ، وبشرح السيد شحروري الذي زاد على الطين بله ، خير شاهد على ما ذهبت اليه.

أما زعمه : « ليست قصيدة الشاعر امين شنار ولا الدفاع عنهـا موضوع هذه الكلمة ، وانما هم هذه الكلمة ان تشير الى اننا نعيب على غيرنا اخطاء نقترفها نحن ... » فباطل يدحضه ما ورد في كلمته مـن مدبج للشاعر وثناء على قصائده التي استشهد بمقاطع منها ، دون ان تقتضي ضرورة ما بذلك سوى انتشال الشاعر من الهوة التي قـذفه اليها ، بشرحه لقصيدته ـ الوحش والمئذنة ـ شرحا يدعم رأيي فيهـا، وان جاء مستترا تحت قناع المثال على الطريقة الصالحة في اصـدار الحكم على الاعمال الفنية . وارجو ان تكون هذه الاخطاء النحوية قـد وقعت سهوا ، ولم يتنبه لها الكاتب : ان في القصيدة مخاطبا ، وليـس مخاطب" ـ انه يتحمل في سبيل ذلك الصعاب ويصادف الاهوال لان جواذب وقيودا وليس وقيود" الى هذا الحد تجني الذاتية عـلى فكرنا فتجعلنا نقلب المفاهيم رأسا على عقب ، متذرعين بان هدفنا ، في الكتابة ، تقويم اتجاه غيرنا ، ليتبع الطريقة الفضلى التي ندعي باننا نسلكها بموضوعية ووعي ، محاولين اخفاء عمليات الزيف والتمويه ، باقنعـة لا تلبث ان تضمحل وتتعفى تحت اضواء العقل الفاضحة . وهنا يصدق علينا قـول ابي العلاء المعري :

ومما ادام الرزء تكذيب صادق   على خبرة منا وتصديق كاذب

بنت جبيل   **حسين علي صعب**

حول تحليل « السمـان والخريف »

بقلم صلاح عيسى

كتب الاستاذ رجاء النقاش في العدد الماضي من « الآداب » (عدد مارس ١٩٦٣) مقالا عن « السمان والخريف » رواية نجيب محفـوظ الاخيـرة .

وفي البداية أحب أن أبرز أهم العيوب التي تبرز للناقد في هـذا المقـال :

لقد القى الكاتب في وجهنا بقضاياه واحكامه العامة دون تدليـل « فالمرحلة الاولى في أدب نجيب محفوظ ، والتي انتهت بظهور الثلاثية، هي المرحلة التي التزم فيها نجيب الاتجاه الطبيعـي » و « كان نجيب محفوظ بلا شك تلميذا نابغا من تلاميذ المدرسة الطبيعية » هذه بعـض الاحكام العامة التي يطرحها رجاء ، وكأنها قضايا مفروغ منها ومتفـق عليها ، دون ان يكلف نفسه مشقة التدليل العلمي على صحتها ، مكتفيا ببعض الحكايات عن فلوبير وبلزاك وزولا !

لقد تناول رجاء جزئية من الرواية محاولا التدليل عليها وهي ان أزمة عيسى أزمة وجودية ، ولكنه فصلها فصلا مبشرا عن بقية الرواية،

الاشتراكية والأدب

ومقالات أخرى

تأليف

الدكتور لويس عوض

دراسات معمقة عن النزعة الاشتراكية
كما تبدو في آثار اكبر الكتاب العالميين

صدر حديثا عن دار الآداب   الثمن ٣٥٠ ق.ل

وعن ظروفها التاريخية ، ومع تسليمنا بحق رجاء في أن يفصل جزئية ويحللها ، فان (عزل) هذه الجزئية وتناولها من خلال فراغ – هو ما لا نوافق عليه .

ولقد ناقض رجاء ناقض نفسه بنفسه ، فأورد الموقف الاخير من الرواية ، وهو موقف لا وجودي على الاطلاق ، وهو وحده كاف لهدم كل ما كتبه !

ان أزمة عيسى كما يصورها الكاتب هي :

١ – مشكلة الاحساس بالغربة ، وعدم الانتماء ، او الاحساس بأن الانسان مطرود من هذا العالم فهو يعاني مأساة السقوط والخطيئة .

٢ – ان المعنى الوجودي لهذه الازمة يتضح في موقفين اولهما حاجة عيسى الى مسكن ، والثاني انكار ابنته له !

٣ – ان احد الادلة الهامة على وجودية الرواية استعمال التعبيرات الشائعة عند الوجوديين ، مثل المنفى ، والعبث ، والاحساس بأن الانسان « زائد عن الحاجة في هذا العالم » !

فاما الادعاء بأن نجيب محفوظ هو من المدرسة الطبيعية فيبدو أنه ينطلق بدون تقدير للاحساس الفلسفي للطبيعية ، لقد ارتبطت الطبيعية في الفكر الفرنسي بموقف تاريخي معين ، فعند ظهورها في اواسط القرن الثامن عشر ، كانت فرنسا تعيش في تناقضات حادة ، نابليون الثالث قد انهار ومعه نظامه البرجوازي ، كوميون باريس أول حركة تقدمية قد انهار ، الاشتراكية العلمية تتسلل كجحافل النور ، وحفاظا على كيان الذين كانت لهم مصالح ظهرت حملة رجعية تعيد ترميم الحياة الرجعية بأحدث الاساليب ، رجعية في السياسة ازدهر معها الفريق الملكي الاوتوقراطي وبدأ الهجوم على الثورة الفرنسية مثالية في الفلسفة ، طبيعية في الفن .

في الفلسفة بدأ ترميم المثالية التي كانت تتهادى تحت أقدام الواقعية ، وسرق الفلاسفة المثاليون مصطلحات العلم ، فظهرت الوضعية على يد أوجست كونت لكي تقول : ان العلم والفلسفة يصفان الظواهر دون تفسيرها ، اننا ندرس الاشياء كما هي لا كما ينبغي ان تكون ، اننا لا نفهم التاريخ ، ولا المجتمع ، اننا نصف ما امامنا فقط !.. وبعبارة اكثر صراحة ان الاوضاع التي امامنا هي هكذا ، ولا نعرفها سوى هكذا ، ولا يمكن ان نغيرها لاننا لا نعرف قوانينها .. وانعكست الوضعية على الفن، فرأت أن دوره يقتصر على تجميع وتصفيف الظواهر المختلفة ، ومن هنا فان الفنان ينبغي ان يظل محايدا بازاء الاحداث ، وان يمسك عن حكمه عليها، وفي هذه الفترة كتب بلزاك وفلوبير وزولا، متأثرين بالعلم الوضعي نفسه ، الذي ابرزه اذ ذاك البيولوجيا ، فحفلت قصصهم بالفوتوغرافية، وبالتركيز على الجزئيات والقول بفكرة الوراثة ..... الخ.

الطبيعة اذن رجعية مستترة ، وان كانت في مجال الفن قد مهدت لظهور الواقعية الاشتراكية فذاك لان الفكر الفرنسي كان يغرق في الرومانسية حتى أذنيه ، فكان النزول الى أرض الواقع – وان كان بصورة رجعية – تمهيدا للنزول اليه بالفهم العلمي السليم ..

وعلى ضوء هذا العرض السريع للطبيعية ، هل يمكن أن نعتبر نجيب محفوظ « تلميذا نابغة من تلاميذ المدرسة الطبيعية » ؟ ان الدور العظيم الذي قام به نجيب محفوظ هو أنه قدم لنا المجتمع المصري من خلال رؤية تؤمن بالتطور ، وتحدد عوامله ، وقواه ، وتسير بها الى منتهاه ، ومن هنا كان التاريخ جزءا من مناخه الروائي ، لا لانه مؤرخ، بل لان التاريخ هو قالب الوجود الاجتماعي في لحظة معينة . وفي كل لحظة تاريخ ، استطاع نجيب محفوظ ان يقدم لنا ببراعة القوى المتصارعة التي تصنع الحركة نحو الامام ، وعوامل الجزر والمد من الداخل والخارج . وفي غياب أي فهم علمي للمجتمع المصري قام نجيب بدوره كفنان وعالم ومؤرخ في لحظة متمازجة كلية فاستطاع ان يقدم هذا المجتمع في رؤية صحيحة ، وقد التجأ للانماط لكي يبرز القوى المتصارعة مجمعا ملامحها فينماذج مفردة، يكون سلوكها وأزمتها ابرازا لسلوك وأزمة القوى المتصارعة من أجل التطور . ان رؤية الواقع في تطوره هو الخط الكلي الذي يمكن ان نراه خلال ادب نجيب محفوظ، واذا كانت «الطبيعية» قد أثرت فيه من ناحية اهتمامه بالتفاصيل الدقيقة ، فهو يستخدم هذه التفاصيل كاطار للواقع الذي يصوره . ان التأثر هنا تأثر شكلي ، وليس تأثرا مضمونيا ! هذا هو المهم !

* *

ما هي الروافد التي تنبع منها أزمة عيسى الصباغ ، وما هي طبيعة الرحلة البطولية الخارقة البطولة التي قام بها لكي يحل تناقضاته الناتجة من موقف تاريخي معين ؟! وهل هي أزمة وجودية ؟؟ ان النظر لازمة عيسى ينبغي ان يكون من خلال رؤية كلية لشخصيته وتطورها ، لا من خلال جزئيات ، وكلمات مبتورة .

السمان والخريف رحلة مليئة بالبطولة الخيالية ، يقوم بها فرد ، لكي يحل تناقضاته الداخلية الناتجة من موقف حضاري معين ، هو لحظة تطور تاريخية هدمت كل الماضي ، وكل ما يحويه ، وكل من يرتبط به. عيسى فرد له أرضية ، وكيان ، وتاريخ ، وهو لا يقذف في وجهنا بكل تناقضاته وكأنه محكوم عليه بها ، وانما هو واحد من ابناء الطبقة الوسطى الصغيرة ، المرحوم والده « عاش ومات موظفا صغيرا مغمورا » (١) ، وهو – سنة ١٩٥٢ – في الثلاثين من عمره – أي انه احد مواليد ما بعد الثورة المصرية القومية ، وتاريخ حياته بعد ذلك هو تاريخ حياة الكثيرين من الذين شاركوا في الكفاح ضد الاستعمار ، لقد مرت به « فترة حية من نبض القلب ، هدير يخلد في الاسماع ، وهراوات الجنود كالصواريخ ، والحماس المهلك للانفس » (٢) كان عيسى وطنيا يؤمن بقضيته ، أعطاها نفسه ، ووهب لها حياته ، وتحمل في سبيل ذلك الكثير ، ثم جاءت لحظات « الاغراء الموهن للهمم ، وزحف الفتور كالمرض»

(١) ص ١٩ (٢) ص ٢١ (٣) ص ٢١

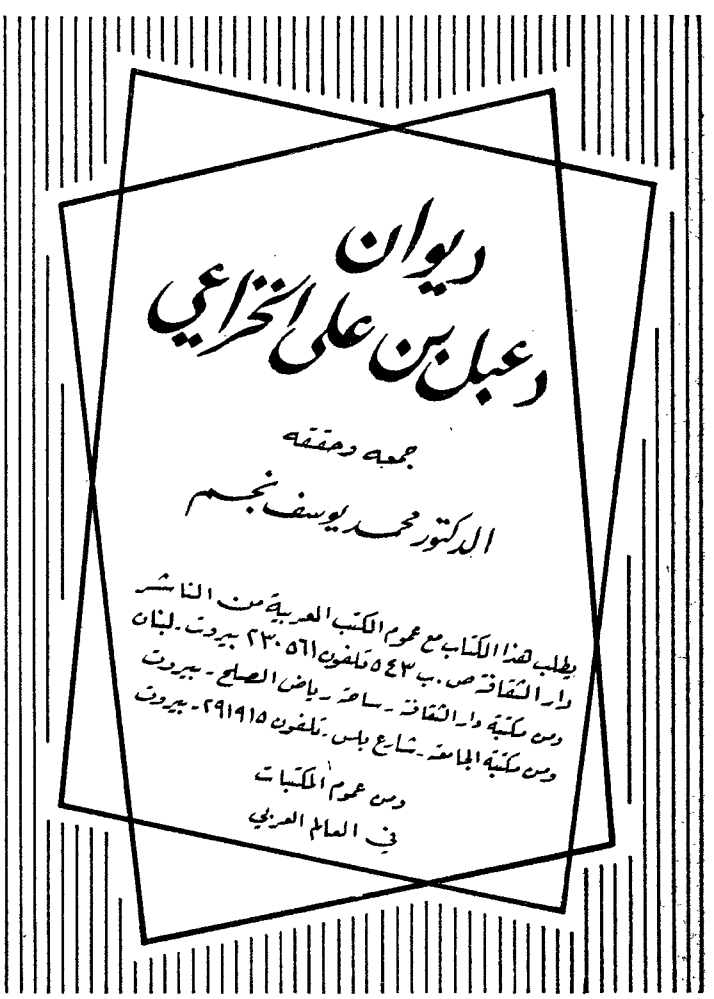

فارتشى عيسى ، وتوسط لمجرمين ، وزحف حتى وصل الى الدرجة الثانية وهو في الثلاثين من عمره ورشح للوزارة ، لقد بدأ بطـــلا .. وانتهى بالرصيد ٣٣١٢٣ بنك مصر. نحن اذن امام احد ابنـاء الطبقـة البرجوازية الصغيرة ، طبقة اللامنتمي الخالدة ، حيث يسود المحتـوى الاقتصادي غير الثابت ، وتصبح الخيوط التي تشد مصالح الناس في تجمع طبقي غير موجودة ، هنا يسود التذبذب والانهيار .. والضياع ، على ان عيسى قد ارتبط بقضية ، وفي الطريق لحلها سقـط ، كمـا سقطت الطبقة التي قامت ثورة ١٩١٩ عندما لم تستطع ان تواجه الحلف المعادي الذي كان يقف لها بالمرصاد حلف العداء من الملك وكبار مـلاك الارض والانجليز .

..... ثم جاء « الزلزال دون نذير كاب » (٤) عندما قامت حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وتبين لعيسى « ان ذلك الماضي يتبلور الان في صدره فقاعه لن تلبث ان تنفجر ، وان وجها جديدا للحياة يسفر عن صفحتـه رويدا رويدا ، حافلا بالجدة والغرابة ، وان بوسعه ان يتعرف على هذا الوجه لانه سبق له ان لمحه هنا او هناك ، ولكن من أين لهذا الوجه ان يتعرف عليه هو داخل الفقاعة المتفجرة » (٥) ، ان الجديد الذي أتى ، شيء مر في احلام عيسى ، ولكن المشكلة ، كيف يتعرف عليه هو داخـل الفقاعة المنفجرة ، تلك الفقاعة التي قامت لتلتهم كل ما للماضي مـن أمجاد . وتنبه عيسى لان الزوبعة التي قامت « ستقتلع الجذور التـي ثبتته بأرضه جذرا بعد جذر » (٦)

وهنا تتبلور أزمة عيسى في احساس مبهم ، انه يتساءل « أيـن الايام الطاهرة أين ؟! اما الختام فهدايا محرمة ، وفساد ثم الضيـاع ، وانت على عتبة المناصب العالية المؤدية الى كرسي الـوزارة ، وكيف تعيش في دنيا من الناسين والمتجاهلين ، والشامتين، وقد طويت الامجاد، كأن لم تكن ، ونشرت الاخطاء كالاعلام » (٧)

.... هذه هي أزمة عيسى ، أن ماضيه الرائـع ، قد نسـي ، وماضيه القذر ينتشر كالاعلام ..

لحظة تطور واثبة ، تقذف من فوق الارض ضحاياها .

ان ازمة عيسى ، هي أنه قد عاش احساسه بماضيه اكثر ممـا عاشه غيره ، كان يؤمن ان الجوانب الخيرة في هذا الماضي يجب أن تبقى.

ولهذا رفض أن يتبع سبيل صديقه ابراهيم خيرت ، المنافق ، الذي طلق الماضي ، والحاضر ، وسار بلا مبدأ ، هذا هو اللامنتمي الحقيقي.. ورفض ان يتصوف مثل سمير عبد الباقي الذي « هرب » هروبا حقيقيا عندما تصوف وارتبط بالفراغ او باللاشيء . اما عيسى فقد اختـار الهروب « داخل الواقع » لكي يمارس تناقضاته حتى يجد لها حلا .

وكانت رحلة عيسى بعد ذلك هي رحلة مضنية وشاقة لحل هـذا التناقض الذي يعيشه ، تناقض بين ارتباطه بقضايا وطنه ، واحساسه بالهزيمة الشخصية ، وفي سبيل حل هذا التناقض مر عيسى بمراحل متعددة ، بدأت بحيرة ضبابية يختلط فيها الجنس بالخمر، ثم يمر بثلاث تجارب تساعده على حل تناقضاته ، تجربته مع ريري ، وتجربته مـع العدوان وتجربته مع ابنته ، ثم يحل التناقض عندما يسقط الماضي خلال عملية نقد ، ونقد ذاتي قاسية ، ويرتبط عيسى بالمستقبل .

* *

ان مرحلة الحيرة تبدأ بادراك اللحظة التاريخية ادراكا فرديا ، انه يتساءل « لماذا قدر عليه ان يحارب التاريخ في موكبه المتدفق منذ الازل» (٨) ، وهو يحاول « النفاذ الى بواطن الادميين المتلكئين في القهوة لغيـر ما سبب واضح ، وجرى في الماضي ملايين السنين بين الدهشة والارتياع، فرأى شحاذا واقفا وراءه ليرمقهم بنظرة مستعطفة ، وقد انقطع المطـر فقال لاصحابه

ـ تصوروا ان هؤلاء الآدميين انحدروا في الاصل من السمك

ـ لكن الاسماك ما زالت تزحم المحيطات بملايين الملايين

فقال بيقين :

ـ وهذا هو سر مأساتنا الحقيقي » (٩)

ها هو يحس بمأساته ، انه واحد من السمك القديم ، ظن انـه النهائي ، لكن الواقع يلطمه ، فيتساءل في حيرة ، ان الاسماك كلهـا ستتحول الى آدميين باستمرار ، وسيوجد دوما مأساة ضحايا لحظـة التاريخ التي يظهر فيها من البحر اسماك ، تميت السمك القـديم !.. وبين كل لحظة واخرى ينظر الى امرأة بنهم جنسي، او تنطلق منه ضحكة ذات شرارة جنسية .

انه يعيش بهذا الاحساس كرمز حقيقي لمأساتـه ، انـه يهتف : « ألا لعنة الله على التاريخ » (١٠) وهو يرثي لضحايا التاريـخ بقلب متأوه ، ويرى انه يتلقى على يافوخه انقـاض العالم القديـم الـذي يتقـوض (١١)

ومن خلال تجربته مع ريري ، يبدأ بنفي الواقع في التعبير عـن وجوده في نفسه ، انه يقول « ان استقلالها الحقيقي هو أن تتحرر مـن الحاجة الي أنا وامثالي » (١٢) ، واذا كان ينهي هذه التجربة بموقف هروبي ، جباني ، الا ان هذا الانتهاء بداية لمرحلة جديدة ، تزيد مـن احساسه الحاد بالجوانب المظلمة في حياته ، في القاهرة يراقص فتـاة ايطالية فيتأثر بجمالها ، ويحزن لامتهانه « ولكنه قال ان قيما تميته غير الجمال ، تلقى نفس المصير ، كالحرية ، والادمية ، وحتى الديـن يتاجر به أناس بلا حياء ، انها في الحقيقة مأساة واحدة وهو نفسه وقع في نفس العبث في ماضيه فهضم الوانا من الفساد وشارك فيه ، ولا يـزال رصيده في البنك شاهدا على ذلك ، فلم لا يسود النقاء ، وما الذي حال دون ذلك طوال القرون ، وهل يوجد في مكان ما من الارض انسان يعيش بلا خوف ، ولا رذائل » (١٣)

هنا تتسلل بذور جديدة الى فكر عيسى ، ويبدأ اتجاه جديد تجاه تجربة جديدة : الزواج « لقد راوده حلم بتغيير جذري في حياته » (١٤)

ان تجربة الزواج تنكشف عن اشياء جديدة . سأله سمير :

« ـ كيف وجدت الزواج ؟

ـ عال ولكن ..

ـ ولكن أشك في أن انسانا يهضمه بلا عمل ، وبلا اطـفال » (١٥)

ان اتجاهه الى الارتباط بالعوامل الايجابية يتحدد تدريجيا !! بعد كـل تجربة ، ان التجربة الثالثة هي تجربة عامة ، تجربة الوجود الوطني كله، العدوان الثلاثي « انفعل بالنبأ لحد الهذيان ودار رأسه بالافكار ، حتى أصابه الدوار ، غضب الغضبة الجديرة بالوطني القديم ، الذي تعذب بالرغم من تلوثه من أجل مصر ، وتشبثت قدماه بحافة الهاوية التـي تهدد وطنه بالضياع ، وأبعد عن فكرة الثورة ومصيرها ليحتفظ بمشاعره في أوج انفعالها » (١٦) انه يعاني لحظة التأزم التي يرتفع فيهـا التناقض الى مرحلة التطاحن بفعل تجربة جديدة ، وحية ، وثرية ، انه يرى ان من واجبه « ان ينصر شطره المتكلم على شطره الصامت ، وان يحتقر المهاجمين بلا حياء اعرابا عن احتقاره لشطره الصامت ، ماذا أدى بنا الى هذه الحالة المحزنة حقا ؟! الا من سبيل الى نسيـان الهـزائم الشخصية » (١٧)

في فترة الفارات والاظلام أتاح له البقاء في المنـزل « فرصة اكبـر لتأمل الموقف وللتشبع بالخطر ، والحنين للنصر ، واسكات شطره الخفي، فتحرك في أعماقه نبع للحماس ، اوشك ان يدفعه للتضحية . وعنـد تسكعه نهارا قرأ في مئات الوجوه مشاعر كالتي تشده الى الحياة رغم الغبار والفناء » (١٨) من خلال هذه التجربة الموضوعية الآتية من الخارج، يبدأ عيسى في الارتباط بالحاضر ، انه يخطو الخطوة النهائية للانطلاق.. وبعد المعركة بدأ عيسى في النظر الى موقفه في محاولة تغيير شامـل ومعالجة متناقضاته بوعي حقيقي « لكل انسان عمل وهو بلا عمل ، ولكل

---

(٤) ص ٤٨ (٥) ص (٦) ص ٤٨

(٧) ص ٥٨ (٨) ص ٦٨

(٩) ص ٦٩ (١٠) ص ٩٢ (١١) ص ٩٤ ، ٩٥

(١٢) ص ١٦ (١٣) ص ١٣٠ (١٤) ص ١٣٣

(١٥) ص ١٤٤ (١٦) ص ١٤٤ (١٧) ص ١٤٩ (١٨) ص ١٥٩

زوج ذرية ، وهو بلا ذرية ، ولكل مواطن مستقر وهو منفي في وطنه ، وماذا بعد الدورات الهروبية المعتادة ؟ » (١٩) ان يتأمل وجوده تأملا واعيا .. ويفقد ماضيه بقسوة ، ويشجب حاضره الانهزامي. انه يتساءل في انكار .. كيف تلوث الوفد ، هرب كلا ثم كلا، كيف انهزم بعد ١٩٣٦ ، انه يرفض القول بأنه كان خير الجميع حتى النهاية ، لان النسبية ليست هي المقياس ، ولانه لم يكن كذلك فعلا بعدما ارتمى في احضان حلفه المعادي ، الملاك الكبار للارض والسراي والانجليز .

وعندما علم بأن رجال حزبه القديم ذهبوا لكي يفاوضوا في التسليم خلال العدوان الثلاثي وثبت الى ذهنه صورة المندوب السامي ، انه يراهم اعداء ، انهم يتهاوون ، ان الماضي يسقط ولكنه ما زال هو وغيره بلا دور ، « السياسة تصنع لهم وهم كالاغوات (٢٠) وبقسوة يفقد سلوكه ويرى نفسه « يرتبط بامرأة ليسرقها لا ليحبها » (١) ويتساءل « ألا توجد افكار من نوع آخر تفتح الصدر للحياة » (٢١)

وتأتي آخر تجربة لكي تنهي موقفه ، انها تجربة اكتشاف ان له ابنة ، هذه هي نقطة نصره العظيم ، انطلاق تحقيق وجوده مواجهة صريحة مع نفسه .

« لقد اعتاد ان يهرب مرات في اليوم الواحد ، ولكنه لن يهرب امام هذه الحقيقة الجديدة التي اجتاحت مستنقع حياته الراكدة فتفجر عن ينابيع حارة لعلها دعوة اخيرة يائسة الى حياة ذات معنى في حياة أعياه ان يجد لها معنى ، لن يهرب ، وليس في مقدوره ان يهرب وسيواجه الحقيقة بوجه متحد وبأي ثمن ، أجل بأي ثمن ، وسيرحب بذلك أيما ترحيب » (٢٢) ان ابنته هي رمز المستقبل الجديد ، ويبدأ في العمل الايجابي للارتباط فتهتف به .

« لست أبا .. أنت جبان .. لا يمكن أن تكون أبا » (٢٣)

انه جبان لانه انغلق على ذاته ، أكله الماضي ، لم يرتبط بالابن ، بالمستقبل .

ان الابنة تتحول من كيان الى رمز .

« هذه الصغيرة شاهد على سخف كثير من المخاوف ، شاهد للطبيعة عندما تضرب لنا المثل على امكان التغلب على المفاسد، الان تستطيع ان تخلق من احزانك وخسائرك وهزائمك نصرا ولو بسيطا، وما هو بالنادر ولا بالجديد ، فهذا البحر الذي احتفظ بصورته ملايين السنين قد شهد أمثلة على ذلك لا حصر لها » (٢٤).

هنا يحل عيسى تناقضاته من خلال تجاربه الملتحمة مع الحياة والواقع ، ويبلغ وعي عيسى بقضيته الشخصية والعامة القمة ، ثم يأتي المستقبل ووردته الحمراء بين اصبعيه ، فيسير عيسى في طريقه .. سائرا مع التطور الى منتهاه !

هذا هو عيسى ، بطل يحل أزمته وتناقضاتها بتفاعل مع الحياة من خلال تجاريب شخصية ، انه لا يهرب في التصوف مثل سمير ، ولا يتقهقر مثل ابراهيم خيرت ، ولا يخون مثل السلهوبي ، كل أزمته لحظة تاريخ!

* *

ان « السمان والخريف » ليست كما يقول رجاء «قصةالانسانالذي أكل من التفاحة المحرمة ، قصة الانسان الضائع الذي وقع في الخطيئة واسلمته الخطيئة لعذاب كبير » عيسى ليس سيزيف ، ليست وليدة الالهة الغاضبة ، ليست حتمية ، لم تلق في وجوهنا بكل أزماتها، وانما القيت ومعها تاريخها ، انها ازمة لحظة ، وهي تتطور بوعي نحو الارتباط بالقيم الرائعة للحياة ، وهي تشجب في قسوة أليمة هذا الانهيار، والتفسخ المهتريء. انها لا تدافع عن العبث ، وهي ايضا ليست نوعا من ابقاء المتناقضات في حالةتوازن ، انها تبدأ بتمرد ميتافيزيقي وتنتهي بتمرد تاريخي ، ان لحظة التمرد الميتافيزيقي ـ كما يقول به كامو ـ في هذه القصة هي احتجاج عيسى على نفسه، ونفيه لها، معبرا عن احساسه بالخطيئة ـ وان كانت هنا لحظية ـ وبالظلم ، ثم ينتهي هذا التمرد الى تمرد تاريخي : ارتباط بالقوىالتي تصنع التطور اللانهائي ..

ان وجودية كامو ترفض التمرد التاريخي ، لانهم يرفضون ، ان التمرد عندهم ليس نفيا مطلقا ولا ايجابا مطلقا ، ولكنه وسط متوتر ، بين السلب والايجاب ، وان الانسان المتمرد عند كامو ليس هو الذييؤكد «الوعي» على حساب «العالم» بل هو الوتر المشدود بين الوعي والعالم ! محاولة اخرى لتجميد المتناقضات ، لتمييعها ، وهذا هو الدور الذي تقوم به اليوم الوجودية والوضعية المنطقية والبرجسونية ، انها فلسفات ضد التطور ، انها تصور مهاوي الازمة التي ينحدر اليها عصرالامبريالية، وتحاول ان تبقي عالمها المنهار حتى اخر لحظة ، ان الابطال الوجوديين هم مخلوقات معذبة ، رغم انها تحاول ان تلقي على عذابها ستارا من الفلسفة ، مخلوقات عنكبوتية المحتوى ، يصرخ الفراغوالخراب داخلها بشعارات مجرد شعارات عن الحرية والكبرياء وامتلاك المصير ، كل القيم التي تعمل الوجودية حقيقة على هدمها عندما تسلب من الانسان قوانين التطور وترميه بالخطيئة، وتحمله صخرة يقضي حياته صاعدا هابطا بها.. ثم تقتله ، تميته ، هاربا من الوجود بعد حياة غريبة .. مهزومة..ضائعة!

ليس هكذا نجيب محفوظ، وليس هكذا عيسى الصباغ .

لا يجب ان نحكم على نجيب من سطح الوعي ، من خلال كلمات والفاظ وجمل ومشابهات ضئيلة ..

وليست السمان والخريف هي اول رواية لنجيب تنتهي بدعوة الى التخلص من أزمته .. ان صوت احمد شوكت في «السكرية» دعا كمال الى التخلص من ازمته ، ونهاية « بداية ونهاية » تكشف لحسين انه كان يمكنان توجد نهاية اخرى.. ولا بد انتعيد قراءة نجيبيا عزيزي رجاء..

القاهرة

صلاح عيسى

(١٩) ص
(٢٠) ص ١٧٧
(٢١) ص ١٩٢
(٢٢) ص ١٩٢
(٢٣) ص ١٩٢ .
(٢٤) ص ١٩٣ .